إشكاليات الكتابة الأدبية في الجزائر من منظور سوسيولوجي

- قراءة في المقاربة النقدية عند عمار بلحسن -

أ. عبد الوهاب شعلان

المركز الجامعي – سوق اهراس

مقدمة:

مثل الباحث السوسيولوجي عمار بلحسن محطة لافتة في سياق الثقافة الجزائرية المعاصرة، فطيلة حياته الفكرية القصيرة استطاع بلحسن أن يقدم كتابات فكرية هامة، قائمة على رؤيا سوسيولوجية، تنهل من فيض العلوم الإنسانية وإنجازاتها المعرفية الهائلة.

لقد كانت سوسيولوجيا الثقافة الحقل المعرفي الأثير في كتابات الباحث. وفي هذا الإطار بلور نقاشات عميقة حول الأنتلجانسيا والمثقفين في الجزائر، وبنية الوعي الثقافي الجزائري، والأسس الاجتماعية للمثقفين، ودورها في صناعة الوعي وتشكيل الرؤيا والمنهج ... وغيرها من الإشكاليات.

وقد استطاع عمار بلحسن أن يشق طريقه أيضا ضمن الفضاء الإبداعي، وذلك من خلال إبداعاته القصصية المتميزة، التي جعلت منه أحد أهم الأصوات الأدبية في مجال القصة القصيرة في الجزائر. وعلى هذا الأساس جمع الباحث بين صرامة البحث السوسيولوجي العلمي ورحابة الفضاء الإبداعي، بين دقة العالم المتسلح بجهاز معرفي ومنهجي واصطلاحي من ناحية، وانسياب المبدع المسكون بهواجس القلق الوجودي وشرارة الكلمة الحية.

ضمن هذا السياق نحاول أن نقدم الأطر الكبرى للمقاربة السوسيولوجية عند عمار بلحسن في إطار الرؤية الشاملة للكتابة الأدبية في الجزائر، وما أفرزته من إشكاليات وقضايا فكرية ومنهجية. فبعيون الناقد السوسيولوجي المتكئ على منظومة معرفية إنسانية، يحاول بلحسن مقاربة الظاهرة الأدبية في الجزائر، وقراءة أسس تكوينها وتحولاتها:

1- تأطير بنية الواقع الثقافي العام:

« يبدو العالم الثقافي الجزائري رماديا، أشبه بصحراء سائدة، لا تنبت فيها إلا بعض نباتات الصبار، التي تختزن ماءها ونسغها، مؤونة منذ سنوات تعتاش منه، في انتظار غيث مستحيل، كأرض تمص مخزونها، متدهورة نحو التصحر النهائي، تذوي براعمها، ويجف ضرعها وزرعها لتترك اليباس يعيث في دبالها بدون هوادة »(1). بهذه الروح الشاعرية، يستهل عمار بلحسن إحدى مقالاته الفكرية عن أزمة الكتابة في الجزائر، وغياب تقاليد الممارسة المعرفية التي تتجلى بصورة واضحة في خلو الساحة الثقافية من إحدى أهم وسائل الفعل المعرفي، أعني المجلة، أو المنبر الغائب كما يسميها.

وإذ يقدم صورة قاتمة وكالحة وجدباء عن الواقع الثقافي الجزائري، فإنما يعود بكلمة " ثقافة " إلى منبعها الأصلي Culture المرتبط بالأرض والخصب والنماء، ومن ثم بالتعدد والحوار والاختلاف. ولكن البحث العلمي الحر، يكشف –في نظر بلحسن- أن الثقافة الجزائرية، تشكلت في سياقات تاريخية واجتماعية بعيدة عن دلالات الثراء والخلق. لقد صيغت هذه الثقافة في إطار الأحادية على المستوى الإيديولوجي، والشفاهية على مستوى التواصل الثقافي، والعزلة على مستوى العلاقة مع الفضاء العربي. كما تشكلت منظومتها في اتجاه الأحادية اللغوية، والبيروقراطية وسيادة النزعة السلفية(2). أدى كل ذلك إلى تمزق وخلخلة في بنية هذه الثقافة، وإلى حضور مشهدي ومهرجاني، بدل الحضور الإبداعي والتأصيلي الخلاق.

لم ينفرد عمار بلحسن بهذه الملاحظات السوسيولوحية عن بنية الثقافة الجزائرية، فثمة باحثون كثيرون، أجمعوا على أن « غياب الطرح الفكري لقضايا خطيرة كان من العوامل التي أطالت المحنة الجزائرية »(3)، إذ لم يستطع الوعي الجزائري أن يواجه إشكالياته الحقيقية الكبرى بعقلية نقدية ومنهجية، تقوم على أساس قراءة الظاهرة ضمن سياقاتها الموضوعية، ومن ثم مقاربتها علميا ومنهجيا، من خلال إبداع فكري وفلسفي أصيل، بعيدا عن النزعة الشعاراتية، والمواقف الآنية والسريعة.

إن غياب منابر الوعي والإبداع والفعل المعرفي الأصيل، كل ذلك أدى إلى سيادة ثقافة استهلاكية تلبي حاجيات ظرفية، وترضي نزعات إيديولوجية طارئة. ولكنها لا تؤسس منظومة ثقافية متماسكة، تصبح مرجعية. إن غياب المجلة –على سبيل المثال-

ليس أمرا عاديا، وإنما هو تمزق خطير في سياق الوجـود الحضـاري والثقـافي العـام. فالمجلة هي« منبر لخلق مرجعيات ثقافية، فكرية، معرفية وإبداعية، تتفاعل داخلها عوامل الجدة والاجتهاد والبحث والمساءلة والحقيقة، والمعرفة التراثية والعصرية، تسمح بوضـع مثل ونماذج للمسلكية والأخلاقية الثقافية»(4). يؤسس هذا المنبر الثقافي الـوعي، ويشـكل الأطر الكبرى التي تقوم عليها المنظومة الثقافية للكيان الاجتماعي والحضاري. إن المجلة هي الصورة الرمزية للبناء المعرفي لشعب ما، والوجه الآخر للإنتاج الفكـري والفلسـفي والإبداعي الذي يلخص –في عمومه- رؤيا العالم Vision de Monde الشاملة.

يتعلق بحضور المجلة – بوصفها أداة بناء فكري- إشكاليات ثلاث:

أ- إشكالية معرفية، لها علاقة بالمفاهيم والتصورات، والقيم الفكرية والجمالية والمعرفية.

ب- إشكالية سوسيولوجية، من ناحية تشكيلها للنخب والزمر المثقفة، وما يتعلق بها من قيم ومنظومات ثقافية.

ج- إشكالية أدبية، ذلك أن المجلة هي « فضاء مفتوح، يؤرخ لولادة النصـوص، ويشـير لمكانتها ومقاماتها، ومراحل تشكلها »(5).

هكذا بلور الباحث الخصائص الكبرى للواقع الثقافي في الجزائر، وهو ما يحـاول أن يبني عليه إشكاليات فكرية ومنهجية كبرى، لها صلة بواقع الكتابة الأدبية في الجزائـر، وذلك من منطلق العلاقة الجدلية بين البناء السوسيوثقافي العام من ناحية وهويـة الإبـداع الأدبي من ناحية أخرى.

2- أزمة الإنتلجانسيا في الجزائر:

يطرح عمار بلحسن –برؤية ابستيمولوجية عميقة- مسألة الإنتلجانسيا والمثقفين في الجزائر، يقر الباحث مبدئيا بأنه « إذا كان هناك غياب للإنتلجانسيا اتفـق الجميـع علـى الإقرار به، فإن هناك –على العكس من هذا تماما- مثقفون فرادى، معزولـون، شـغيلون، ذهنيون، يعيدون إنتاج خطابات سياسية وإيديولوجية محلية أو عربيـة أو عالميـة علـى المستوى الفكري »(6). ينطلق بلحسن –في رؤيته هذه- من منطلقات الفيلسوف الإيطـالي أنطونيو غرامشي، الذي يفرق بين صنفين من المثقفين: مثقف تقليدي ومثقـف عضـوي. وبناء على هوية المثقف العضوي، النقدي، المرتبط بالسياق بالطبقات الاجتماعية ووعيهـا

التاريخي، ينتهي الباحث إلى عدم وجود إنتلجانسيا « تتظاهر وتعمل كمجموعة اجتماعيـة منسجمة وعضوية، تقوم بالإنتاج المعرفي والإيديولوجي المتنوع، وتملك ميـادين عملهـا ومؤسساتها المادية وأجهزتها الثقافية والإيديولوجية »(7)، تشكل وعي الجماعـة، وتضـع رؤاها وطموحاتها المستقبلية من خلال عمل ثقافي أصيل وعميق ومنظم.

ليس هناك إنتلجانسيا لهذا المفهوم، ولكن هناك مثقفون منعزلون، يمارسون الفعـل المعرفي، بمعزل عن المؤسسات والنظم الفاعلة، يبلورون أفكارا وقيما وممارسات لا صلة لها بالأهداف المستقبلية والعمل المنظم.

هناك –إذن- مثقفون أو بالأحرى منتجو خطابات، يرى عمار بلحسن أنهم يشـكلون أطرافا ثلاثة هي:

أ- السياسي البراغماتي، الشعبوي، الذي لا يمتلك عمقا ثقافيا.

ب- العالم أو رجل الدين، وريث الخطاب الإصلاحي السلفي.

ج- الكاتب أو المثقف أو المفكر، المرتبط بالمؤسسات الثقافية والجامعية والإعلامية(8).

لقد تشكلت الممارسة الثقافية في الجزائر –في نظر بلحسن- ضمن فضاء سـاد فيـه الخطاب السياسي–الإيديولوجي ذو النزعة الأحادية والشعاراتية، وهيمنـت فيـه النزعـة السلفية الفقيرة، التي لم تستطع أن تكون امتدادا فكريـا للخطـاب الإصـلاحي، وإثـراء لمقولاته وأطروحاته وفق ما يتماشى وروح العصر. لقد ظلت هذه النزعـة تـدور حـول قضايا تم استهلاكها بسطحية وإيديولوجية، مثل الأصالة والمعاصرة، والتعريب، والهويـة والوطنية. لم يتم طرحها بعمق، في شكل مشاريع فكرية متماسكة، أو على الأقل كتابـات تأسيسية، تقارب المسائل من زاوية علمية، تستمد أصولها من إنجازات العلـوم الإنسـانية الهائلة. وعلى الرغم من وجود مفكرين في هذا المجال، أمثـال أبـي القاسـم سـعد الله، ومصطفى لشرف، فإن حصيلة أعمالهم كانت فقيرة وهزيلة –في نظر الباحث- لـم تـرق إلى مستوى أعمال المغربي محمد عابد الجابري، أوالتونسي هشـام جعـيط، أوالسـوري برهان غليون(9).

لقد انتهت السلفية الفكرية التي هيمنت على الخطـاب الثقـافي الجزائـري– لاسـيما المكتوب باللغة العربية-، انتهت إلى حصيلة تكاد تكون كارثيـة، لخصـها الباحـث فـي نقطتين رئيسيتين:

أ- « الأدلجة الهشة والفقيرة »، التي ترعرعت في ظل النزعة الوطنية والعربية، لا صلة لها بالإبداع والتجديد الفكري، ولها صلة أيضا بفتوحات العلوم الإنسانية.

ب- « تدجين الثقافة والفكر وأدب والفن »، من خلال تقديم إجابـات جـاهزة وسـطحية لأسئلة معرفية عميقة. لقد حل الفقيه محل الفيلسوف، والداعية محل المفكر، مما أدى إلـى انسداد الوعي وتسطيحه(10).

3- إشكاليات الكتابة الأدبية في الجزائر:

في ظل هذه الرؤيا السوسيولوجية المنفتحة، والمؤسسة علـى منظومـة العلـوم الإنسانية المختلفة، يحاول عمار بلحسن أن يقترب من بعض إشكاليات الأدب الجزائـري وقضاياه المحورية، ومنها:

أ- علاقة الأدب بالإيديولوجيا:

يعد مفهوم الإيديولوجيا من المفاهيم المركزية في المـنهج السوسـيولوجي، وذلـك بحكم استناد هذا المنهج إلى المرجعيات الفلسفية الماركسـية بوجـه خـاص. ومصـطلح إيديولوجيا مصطلح مربك ومشوش، فهي كما يقول عبد الله العـروي « دخيلـة علـى جميع اللغات الحية، تعني لغويا، في أصلها الفرنسي، علم الأفكار، لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمنوها معنى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسـية، فأصـبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية »(11). لقد تعددت مفاهيم الإيديولوجيا، بحسـب المرجعيـة الفكرية والفلسفية، ففي نظر ماركس هي « مملكة الوهم الحاجية التي بناهـا إيـديولوجيو المجتمع الألماني لتبرير جحيم الأرض الرأسمالية »(12). وهي عند غرامشي « تصـور للعالم، يتجلى ضمنيا في الفن والقانون والنشاط الاقتصادي، وفي جميع تظـاهرات الحيـاة الفردية والجماعية»(13). أما عند ألتوسير، فهي « تمثيل علاقـات النـاس مـع شـروط وجودهم الواقعية»(14).

بعد أن استعرض بلحسن المفاهيم المتعددة للإيديولوجيا في حقـول الفلسـفة وعلـم الاجتماع، قدم مقاربة سوسيولوجية لعلاقة الإبداع الأدبي بالحقل الإيديولوجي، تنطلق مـن مبدأ أن الكتابة هي ممارسة قائمة على اللغة، إذ يقوم الكاتب بإعادة صياغة العـالم وفـق لعبة لغوية وجمالية، فهو –إذن- لا ينسخ الأشياء وإنما يعيد خلقها من جديد، ومن ثم فهـو يعيد إنتاج الإيديولوجيا، ولا يكون نتاجا لها. ويرى الباحث أن هذه العلاقة، يمكن أن ينظر إليها من خلال أطروحات ثلاث:

أ- النص الأدبي يعيد تشكيل الإيديولوجيا وبنينتها Structuration لينتج دلالات جديدة.

ب- النص يعري كاتبه ويفضحه، من خلال نزع الأقنعة عن إيديولوجيته.

ج- النص تمثيل جمالي لظواهر الواقع(15).

انطلق عمار بلحسن في رؤيته للعلاقة بين الأدب والإيديولوجيا من تـراث النقـاد السوسيولوجيين لاسيما تراث المنهج الإمبريقي عند روبير اسكاربيت R.Escarpit الـذي يميز بين ضربين من النقد السوسيولوجي: دراسة الأدب داخل المجتمع، ودراسة المجتمـع داخل الأدب(16).

وأعتقد أن بلحسن اهتم بدراسة الأدب داخل المجتمع، أي تكون الظاهرة الأدبية فـي ضوء علاقاتها بالتناقضات الاجتماعية والثقافية، ولكنه لم يدرس الأبعاد الاجتماعيـة فـي النصوص الأدبية من زاوية سوسيونصية، تأخذ بالاعتبار مبدأ أن النص لا يعكس واقعـا، ولكنه يعيد تشكيله عبر آلياته اللغوية والجمالية.

ب- مأزق اللغة:

ظل سؤال اللغة السؤال المركزي في الأدب الجزائري الحـديث، ذلـك أن المشـكلة اللغوية في الجزائر، أخذت أبعادا إيديولوجية وثقافية في منتهى الخطورة. لم تكن الفرنسية " غنيمة حرب " -كما يقول كاتب ياسين– بالمعنى الإبداعي والإنتاجي، وإنما غدت لـدى قطاع كبير من مستعمليها أداة لتعميق السؤال الحضاري، سؤال الهوية. ومـن ثـم غـدا استعمال العربية إشكالا آخر، حيث تحول إلى موقع الدفاع عـن هويـة، تـم تسـطيحها وتحجيمها إلى أقصى الحدود.

لقد قدم عمار بلحسن حصيلة هذا الواقع اللغوي المتأزم بقوله:« ثمة وضـــع لغـــوي مكبوح: نخبة عربية اللسان، ضحية ثقافة سلفية موروثة منعزلة، تملك مشروعية التعبيـــر اللغوي والثقافي والرسمي، ولكنها منغلقة في وجه التجديد الفكري والإبداعي ... (و) نخبة فرنسية اللســـان والمرجعيـــة الثقافيـــة، تلغمهـــا الحساســـيات والنزعـــات وصـــراعات المجموعات... تغذيها بقايا فرانكفونية وتبعية لســـانية وفكريـــة ... (و) جماعـــات مثقفـــة أمازيغية، منعزلة ومنغلقة، لا تعرف الثقافة العربية »(17). بهذه القتامة، يرســـم الباحـــث المشهد اللغوي في الجزائر، مشهد تأسس في أحضان الإقصاء، وجهـــل للآخـــر، وعـــدم الاعتراف به، تغذيه روح انتقامية دفينة، ترى الحقيقة لديها، وتنفيها جذريا عـــن الآخـــر. ومن هنا غدا الواقع اللغوي مأزوما، فبدل أن يتحول التعدد اللغوي إلـــى فضـــاء حـــواري خصب وحر، يؤسس منظومة ثقافية منفتحة، متأصلة في جـــذورها التراثيـــة، ومحـــاورة للحداثة، أصبح التعدد أداة للأحادية والنزعة الإلغائية.

كيف نفسر هذا الجدار السميك بين من يكتب بالفرنسية وتراث الثقافة العربية ؟ وبين بعض من يكتبون بالعربية وإنجازات الحداثة؟ لماذا كانت اللغة عامل اغتراب وانفصال - يكاد يكون كليا- عن الكينونة الحضارية؟ لماذا شكلت تجربة الكتابة بالفرنسية ظاهرة خاصة في الجزائر على خلاف ما هو موجود في باقي الدول المغاربية وبعض الدول المشرقية ؟

تتميز التجربة الفرانكفونية في تونس والمغرب بسمة التواصـــل الحضـــاري مـــع الموروث الثقافي العربي. لا تكاد إشكالية الصدام تطرح عند الطاهر بن جلون، وإدريـــس شرايبي، وعبد اللطيف اللعبي، وعبد الكبير الخطيبي في المغرب، أو عبد الوهاب المـــدب في تونس، أو أمين معلوف في لبنان. كتب معلوف في هذا الســـياق يقـــول « إن كـــوني مسيحيا، ولغتي الأم هي العربية، التي هي لغة الإسلام المقدسة، هـــو إحـــدى المفارقـــات الأساسية التي شكلت هويتي. إن الحديث بهذه اللغة، يجعلني أنسج علاقات مع كـــل مـــن يستعملها يوميا في صلاتهم ... إن هذه اللغة هي عامل مشترك بينه وبين أكثر من مليـــار من الناس »(18). إن هذا الموقف من مشكلة الهوية له انعكاساته الكبيـــرة علـــى العمليـــة الإبداعية، نحا أمين معلوف إلى استلهام التراث العربي الإسلامي في نصـــوص روائيـــة حظيت بشهرة واسعة. لقد استثمر معلوف خصوبة اللغة الفرنسية وجمالياتها، ومنجـــزات الحداثة الروائية العربية، لينطلق من كل ذلك إلى محاورة التاريخ والتراث.

هناك قطيعة واضحة في التجربة الجزائرية، فباستثناء نصوص رشيد بوجدرة التي تقيم بعض الجسور مع التراث الثقافي العربي، تكاد معظم الكتابات الفرانكفونية تجهل تماما ثراء هذا التراث. صحيح أن بعضها استلهم التراث الشعبي مثل كاتب ياسين، ولكن نسبة كبيرة أقامت قطيعة مرعبة مع هذا المخزون. إن كتابات رشيد ميموني، ومولود معمري، ومولود فرعون، وآسيا جبار، وصولا إلى التجارب المعاصرة مع بوعلام صنصال، ومليكة مقدم، وياسمينة خضرة، ... تشكل كلها دليلا قاطعا على ذلك.

كتب يوسف سبتي –وهو أحد الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية والعربية- يقول « إن أدبنا الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ازدواجي الأسلوب والأصل والمصير، رغم وحدة ينقلها من مرة إلى أخرى، ومن ممر إلى آخر، إنها وحدة ضئيلة، مهددة بالتبعثر »(19). ثمة انفصام بين هوية لغوية مطموسة ومكتوبة وممارسة لغوية مستحيلة، مما أحدث صراعا رهيبا، انتهى عند الكثير إلى مآزق الانسداد والقطيعة. لقد حاول بعض من يكتب بالفرنسية أن يهرب من هذا المأزق، من خلال الدعوة إلى هوية الكتابة نفسها، وأن الكينونة تقبع في فعل الإبداع لا في هوية مفارقة ومتعالية، عبر عنها عبد اللطيف اللعبي بقوله « وهكذا تصبح الكتابة هي الوطن الرحب، المدهش دائما المسقط لكل القناعات الضيقة والرؤى الضيقة والأوطان الضيقة، الزارع دوما بذور العصيان وجنون الأمل، رغم كل أسباب فقدان الأمل، هنا وطني الأصلي والشرعي، والوطن الجغرافي، ليس إلا تجليا من تجلياته »(20). الوطن هو الكتابة، والهوية هي الكتابة أيضا، ذلك هو مخرج بعض المبدعين الذي انتهى عندهم سؤال اللغة أزمة وجودية وحضارية مزمنة.

ج- الأدب الجزائري ونقد منظومة القيم:

ثمة ملاحظة أساسية في بنية النصوص الروائية الجزائرية العربية والفرانكفونية على حد سواء، وهي تعرية بؤس الإيديولوجيا السائدة، ونقد منظومة القيم الاجتماعية والثقافية المهيمنة. لقد مارس النص الروائي –خصوصا- فضحا بالغا للسائد والثابت بمفهوم أدونيس، وصل في بعض النصوص إلى حد القطيعة الشاملة مع خصوصيات الذات الثقافية.

وقد رافق هذا النقد الروائي للمجتمع نقد فكري ومعرفي وسوسيولوجي تبناه مجموعة من المفكرين أمثال مصطفى لشرف وجمال الدين بن الشيخ ورضا مالك ...

ومن هنا تأسس الأدب الجزائري –في جزء هام منـــه- « كتابـــة نافيـــة نقديـــة وجدليـــة للمنظومات الإيديولوجية الوطنية الشمولية، نصا مفككا وإيحائيا للكتابات المهيمنة بوصـــفها بنيات ذهنية لمجموعات اجتماعية وسياسية بمفهوم أدورنـــو وغولـــدمان »(21). وهكـــذا يستعيد بلحسن أداة منهجية في النقد السوسيولوجي، أقصد بذلك مفهوم " رؤيا العالم " الذي طرحه غولدمان، والذي يعني أن الكاتب يقدم –في آخر المطاف- رؤيا شاملة تتطـــابق مع البنية الذهنية السائدة لدى الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

وفي اعتقادي أن هذا المفهوم يصادف عوائق كثيرة، أهمهـــا أن الـــرؤى المعبـــرة عنها في كثير من النصوص الروائية كانت رؤى فردية، بـــل متناقضـــة مـــع تصـــورات الجماعة ذات المنحى الشعبي السلفي المحافظ في أغلب الأحيان. ثمـــة إشـــكالية واضـــحة تتمثل في القطيعة بين الروائي وجذوره الطبقية والاجتماعية، ومن ثم يغدو مفهـــوم رؤيـــا العالم مفهوما مشوشا ومربكا.

ومهما يكن من أمر فقد واجهت الرواية الجزائرية المسكوت عنـــه، والمقمـــوع، والسائد، والمهمش. وهنا يطرح بلحسن أهمية تناول النص الجزائري من خلال نظريـــات إيديولوجية نقدية كالماركسية والإسلام السياسي والحداثة، بحيث يتم الكشف عن التيمـــات المختلفة عن التيمات المهيمنة. وقد لخصها الباحث في:

1- نقد إيديولوجيا المشروعية التاريخية التي تأسست عليها الدولة الوطنية.

2- نقد المعيشي ومساءلة المكبوت والمهمش مثل: الحب والجـــنس والمـــرأة باعتبارهـــا تيمات تعمد إنتاج الهيمنة بكافة أشكالها.

3- نقد المرجعية الدينية والسلفية.

4- الدعوة إلى الحرية والاختلاف.

5- نقد إيديولوجيا " الإجماع " الوطني والاجتماعي، وإظهـــار الصـــراعات والتـــوترات المطموسة(22).

ضمن هذا السياق تأسست النصوص الروائية الهامة في الأدب الجزائري المعاصر، ومثل كاتب ياسين محطة لافتة في هذا النهج، فمن خلال « عنف الكتابة وتبني المواقـــف

المناقضة للذات، فإن كاتب كان أول من تجرأ على كافة المستويات. لقد كانـت القطيعـة والثورة هما الفضاء الذي عاش وكتب فيه ياسين»(23). وفي الجيل الثاني يبـرز رشـيد بوجدرة كأهم من جسد الخط النقدي العنيف تجاه السائد، « لقد عدت رواية رشيد بوجـدرة في أغلب الأحيان أثرا مستفزا، مؤسسا على الفضيحة، إنهـا أثـر مربـك، يثيـر كافـة الخصومات »(24). ويستفز كافة التصورات المتوارثة.

هكذا بلور ياسين وبوجدرة خطا سرديا متميزا في الرواية الجزائرية والعربيـة -إذا تجاوزنا مأزق اللغة- لا يعترف بحدود العرف والسائد، يسعى إلى تثوير الكتابة كمـدخل لتثوير الفضاء الاجتماعي.

والملاحظ أن هذا النقد الاجتماعي والثقافي الذي طبع نصوصهما، لم يتوقف عنـد هذا المستوى، بل تعداه إلى مستوى جمالية اللغة والبناء السردي. لقـد تحـول الخطـاب الروائي عند بوجدرة وياسين، وفارق فضاءاته الكلاسيكية والواقعية التي درج عليها كتاب الجيل الأول: محمد ديب، ومولود معمري، ومولود فرعون، ... لقد فتحا أبـواب الروايـة الجديدة على مصراعيها من خلال إحداث ثورة في شعرية اللغة، وجمالية الهيكل السردي، وحضور الشخصية، وإرباك الزمن، وتشويش المكان، واستحضـار النصـوص التراثيـة الغائبة ...

إن رواية " نجمة " و" التفكك " و" التطليق " أوضح مثال على هذه النزعة الحداثية في الرواية الجزائرية. ولكننا لا نعدم نصوصا أخرى ضمن هذا الخط الفكري والجمالي– وإن اختلفت في الدرجة- مثل " اللاز " و" الباحثون عن العظام" للطـاهر جـاووت، و" النهـر المحول" لرشيد ميموني.

خاتمة:

حاولنا أن نقدم أسس المقاربة السوسيولوجية للباحث عمار بلحسن في رؤيتـــه للكتابـــة الأدبية في الجزائر وإشكالياتها النظرية والمنهجية. لقد رصد بلحسن الظاهرة الأدبية فـــي الجزائر بعيون الناقد السوسيولوجي الذي يبحث في الواقعـــة فـــي جـــذورها الاجتماعيـــة والثقافية. إن بلحسن لم يقارب نصوصا مقاربة نقدية نصية تبـــرز تجليـــات الاجتمـــاعي والإيديولجي من خلال تحولات اللغة والبيئة السردية، وإنما أدرج البعد الأدبي ضمن مـــا يسمى بسوسيولوجيا الثقافة.

الهوامش:

1- عمار بلحسن، الكتابة والمنبر الغائب، المجلات الثقافية في الجزائـــر، مجلـــة التبيـــين، ع 5، 1992، (جمعية الجاحظية)، ص 92.

2- المرجع السابق، ص 92.

3- الزواوي بغورة، الخطاب الفكري في الجزائر بين النقـــد والتأســـيس، دار القصـــبة للنشـــر، الجزائر، 2003، ص 06.

4- عمار بلحسن، الكتابة والمنبر الغائب، ص 94.

5- المرجع السابق، ص 95-96.

6- عمار بلحسن، إنتلجانسيا أم مثقفون في الجزائر، دار الحداثـــة، بيـــروت، ط1، 1986، ص 176.

7- المرجع السابق، ص 163.

8- راجع هذه الأطراف في: عمار بلحسن، المنبر الغائب، ص 97، وما بعدها.

9- المرجع السابق، ص 110.

10- المرجع السابق، ص 111.

11- عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط6، 1999، ص 9.

12- عمار بلحسن، مفهوم الإيديولوجيا، سلسلة المكتبة الشعبية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 9.

13- المرجع السابق، ص 19.

14- المرجع السابق، ص 85.

15- المرجع السابق، ص 97-98.

16- Robert Escarpit, Le littéraire et le Social, flammarion, Paris, 1970, P 38.

17- عمار بلحسن: الكتابة والمنبر الغائب، ص 109.

18- Amin Maalouf: Les identités meurtrières, Grasset, 1998, P 23-24.

19- يوسف سبتي، الأدب الوطني من الأمس إلى الغد، مجلة التبيين، ع1، 1990، ص 16.

20- عبد اللطيف اللعبي، عن مفهوم الوطنية في الكتابة الأدبية، مجلة التبيين، ع1، 1990، ص 86.

21- عمار بلحسن، الجزائر كنص: سؤال عن الأدب الوطني، مجلة التبيين، ع1، 1990، ص 133.

22- المرجع السابق، ص 133-134.

23- Kateb Yacine et la modernité textuelle: ouvrage collectif, O.P.U, Alger, P 106.

24- Naget Khadda, Représentation de la féminité dans le roman algérien de la langue française, O.P.U, Alger, 1991, P 136.